أزمة الهوية عند المراهق ودورها في تشكيل الهوية الثقافية لدي الفرد.

ميسوم ليلى.

يعتبر مفهوم الهوية من المفاهيم الصعبة التحديد ، باعتباره مفهوم متحرك وفي حالة بناء دائم من خلال الوضعيات التي يكون فيها الأفراد والجماعات ، ونوعية العلاقات الموجودة بينها.

فالهوية تتغذى بالتاريخ وتشكل استجابة مرنة تتحول مع تحول الأوضاع الاجتماعية والتاريخية، وبذلك فهي هوية نسبية تتغير مع حركة التاريخ وانعطافاته.

إن الهوية هي الجسر الذي يعبر من خلاله الفرد إلى بيئته الاجتماعية والثقافية، فهي إحساس بالانتماء والتعلق بالمجموعة ، والقدرة على إثبات الهوية مرتبط بالوضعية التي تحتها الجماعة في المنظومة الاجتماعية ، فالهوية الثقافية هي ذلك التفرد الثقافي، بكل ما يتضمنه معنى الثقافة من عادات ، أنماط ، سلوك ، قيم ، والنظرة إلى الكون والحياة.

ويشير مفهوم الهوية إلى ما يكون به الشيء هو، أي من حيث تشخصه وتحققه في ذاته وتمييزه عن غيره ؛ فهو وعاء الضمير الجمعي لأي تكتل بشري ، ومحتوى لهذا الضمير في نفس الوقت ، بما يشمله من قيم، عادات، مقومات تكيف، وعي الجماعة وإرادتها في الوجود والحياة داخل نطاق الحفاظ على كيانها[1].

ويعرفها " جيمس مارشا . *E .Marcia* " 1966 بأنها : " تنظيم داخلي معين للحاجات والدوافع والقدرات والمعتقدات والإدراكات الذاتية ، بالإضافة إلى الوضع الاجتماعي السياسي للفرد "[2].

تبدأ الهوية بالنمو والتطور خلال التاريخ الشخصي للفرد بما يتوافر له من" تدريبات أساسية لضبط السلوك ؛ وإشباع الحاجات وفقا لتحديدات اللغة والعادات والمعايير والأدوار في إطار المنظومة الثقافية للمجتمع، وهذه الالتزامات تفرضها المؤسسات الاجتماعية على الفرد، وعليه إيجاد حلول لها بطريقة إيجابية "[3].

وتعد المفاهيم التربوية أن" تشكيل الهوية المثالي يتم من خلال المرور بالطقوس الهامة التي تقدم منظوراً مفيداً لتفحص تحويلات الهوية أثناء مرحلة البلوغ ، وتوضيح التآلف بين السيكولوجي والاجتماعي، والتي توصل المراهقين إلى عالم ما وراء الطبيعة المتعلقة بالنوع الاجتماعي لهم ، والتي يتم اكتسابها من الثقافة "[4].

وتحتاج هذه الانتقالات من الفرد إلى معرفة " **أناه** " ضمن الآخرين وتطوير مفهوم الذات لديه .

ويصف وظيفة مفهوم الذات بأنها " آلية معرفية تدعم المتصل السلوكي، ومنظومة من إدراك الواقع الاجتماعي الذي يرتبط ببروز الهوية الاجتماعية في حالات من الارتباط السيكولوجي بين الأفراد "[5].

ويسهم المجتمع في" تطوير نمو الأنا ومساعدة الأفراد كي يجدوا الأدوار المناسبة داخل النظام الثقافي ، الذي يواجه الفرد دائماً بقيم متضادة ، لأن التأثيرات الاجتماعية ليست دائماً نافعة، والقيم التي يؤكدها المجتمع تختلف بين الثقافات ، والثقافة التي تشهد تصارعاً تؤثر كثيراً في ضعف تكوين الهوية "[6].

ولقد ظهر مفهوم الهوية بشكل واسع وأكثر دقة عند "***أريك هـ.إريكسون*** . ***E .Erikson***" رائد مدرسة التحليل النفسي الحديثة حول مراحل النمو النفس الاجتماعي للفرد ، وهو يرى أن الهوية هي: " المجموع الكلي لخبرات الفرد ، وتتكون من عنصرين هما : هوية الأنا وهوية الذات ، فهوية الأنا ترجع إلى تحقيق الالتزام في بعض النواحي ، كالعمل ، القيم الإيديولوجية ، السياسية ، الدين ، وفلسفة الفرد لحياته ، أما هوية الذات فترجع إلى الإدراك الشخصي للأدوار الاجتماعية "[7].

وقد قسم في هذه النظرية دورة الحياة إلى ثمان مراحل متعاقبة ومنفصلة نسبيا عن بعضها ، يظهر في كل منها أزمة أو حاجة يؤكد حلها على نمو الأنا ، وتحقيق الشخصية السوية، أما الفشل في بلوغها أو عدم تحقيقها يؤدي إلى اضطراب في تشكل الشخصية .

تدور في مرحلتا الرضاعة والطفولة الصراعات الجوهرية الأربعة وهي : الثقة مقابل الشك ، الاستقلال الذاتي مقابل الخجل ، المبادرة مقابل الشعور بالذنب ، الكفاية مقابل الشعور بالنقص.

أما في مرحلة المراهقة فيكون الصراع ما بين الهوية مقابل اضطراب الدور أو ما يسمى بـ" **أزمة الهوية** "، حيث تمثل المطلب الأساسي للنمو خلال هذه المرحلة ، وتبدأ عملية تشكل هوية الأنا بظهور الأزمة نفسها ، والتي تمثل الوجه الايجابي لأزمة النمو في هذه المرحلة .

إذ يصف "***إركسون***" أزمة الهوية بأنها :" نقطة دوران ضرورية ولحظة حاسمة تحدد ما إذا كان ينبغي أن يتحرك النمو في مسار واحد أو أكثر ، وتساعد الفرد على تنظيم موارده وإعادة اكتشاف الهوية ، إضافة إلى التمايز والتفرد "[8].

فأزمة الهوية هي مفهوم اجتماعي يعني تحقيق المراهقين لأهداف عامة في مهمات التطور حيث ينشغلون " بتشكيل الأهداف الشخصية ، القيم ، يطورون الاستقلالية، ويعملون على اكتشاف قدراتهم وإراداتهم لاختيار وتوجيه مستقبلهم ، كسمات مرحلة تشكيل الهوية "[9].

وقد وجد "***إركسون***" أن البحث عن الهوية يصبح استثنائياً وشديد الخطورة في مرحلة المراهقة، وتتمثل الأزمة في الحاجة إلى بناء هوية متماسكة ، وإن بعض أشكال هذه الأزمة ضروري للمراهق لحل قضايا الهوية ، والتي تتضمن مشاكل في الألفة المودة ، العلاقات ، الأدوار المؤطرة من الأسرة ، صعوبات في توظيف المحصلة الاجتماعية بطريقة واقعية، والسيطرة على المشاعر والانفعالات، ومرحلة الأزمة هي فترة من التعليق السيكولوجي و الاجتماعي لإنجاز الهوية "[10].

ويرتبط التوصل إلى حل إيجابي لهذه الأزمة بنجاح المراهق في إيجاد إجابات على تساؤلاته حول ذاته ، وبذلك يطور شعوراً بالهوية ، والفشل في هذه المهمة يؤدي به إلى الارتباك حول أدواره الاجتماعية كراشد و تطور لديه شعور بغموض الهوية ؛ لذ فإن سماح الوالدين للمراهقين باستكشاف الأدوار، وتنوع الطرق للدور الواحد . وعدم إقحام هوية المراهقين وإجبارهم على اعتناقها ، يعتبر مهما في تحديد مسار وتشكل الهوية[11].

ويمكن للآباء أن يعززوا الإحساس القوي والسليم بالذات ، من خلال تسهيل كل من الفردية ، التواصل ، والاحتواء ، وليس مجرد انعكاس لذواتهم وتطلعاتهم ،لأن البيئة العائلية مكون مركزي في تشكيل الهوية عند الأطفال وفق الأدوات الثقافية.

وترتبط هذه الأزمة بمحاولة المراهق تحديد معنى لوجوده في الحياة (من أنا ؟ وما دوري في هذه الحياة وإلى أين أتجه ؟)، وذلك من خلال محاولته اكتشاف ما يناسبه من مبادئ ، معتقدات ، قيم ، عادات ، تقاليد تحدد هويته الثقافية ، أهداف ، أدوار، وعلاقات اجتماعية ذات معنى على المستوى الشخصي والاجتماعي، والتي يستقيها سواء من الأسرة أو المدرسة أو المجتمع ككل ، أو يستقيها من ذلك الجزء المخزن في اللاشعور ، والذي سماه "***يونج . Jung***" بـ " **اللاشعور الجمعي** "، والذي يره أساسي لبناء الشخصية إلى جانب اللاشعور الشخصي .

فاللاشعور الجمعي يشمل جميع الخبرات والرموز والأنماط اللاشعورية البدائية الموروثة ، والتي تعبر عن فكر الجماعة أو السلالة المتوارث عبر الأجيال المتعاقبة ، حيث تقوم الجماعة بخلقها وحمايتها عن طريق الطقوس والشعائر ، فهو عام بين الناس ، إذ يعتمد على الاستعدادات المتوارثة ، وينتج عن التأثير الانفعالي التراكمي للخبرات الإنسانية وتراكم أفكار ومعتقدات المجتمع عبر الأجيال .

وتنتهي الأزمة بتحقيق المراهق إحساسه القوي بالذات وبالتفرد الشخصي، وذلك ضمن نسيج العلاقات الاجتماعية ، وفي إطار الثقافة السائدة في المجتمع ، فيتمكن بذلك من تشكيل وتحقيق هويته الشخصية والاجتماعية والثقافية .

ولعل مصطلح الطقوسية (Ritualisme) الذي استخدمه "***اريكسون***" يوضح أكثر كيفية تشكل الهوية الثقافية ، لأنه يشير إلى نمو الأنا وفاعليته السوية في ضبط الجانب البيولوجي والاجتماعي .

فالطقوس تمثل الاستمرار وتعبر عن الميكانزمات الاجتماعية التي يتعلمها الفرد من ثقافته، كما تمثل الطريقة المثلى لانجاز الأشياء ، وتتحول هذه الطرق أو الطقوس إلى

سلوكيات وعادات يومية ، تعبر عن نمط حياة الفرد وتقوي إحساسه بهويته وانتمائه . فالطقوس حسب " ***اريكسون*** " هي التي تساهم بشكل كبير في تشكيل وتكوين الهوية الثقافية لدى الفرد .

فإذا اعتبر" ***اركسون*** " أزمة الهوية نقطة دوران ضرورية ولحظة حاسمة تحدد ما إذا كان النمو يتحرك في مسار واحد أو أكثر ، وتساعد الفرد على تنظيم موارده وإعادة أهداف الهوية ، إضافة إلى التمايز والتفرد .

فيمكن اعتبارها أيضا محطة حاسمة ومفصلية في بروز وتشكل الهوية الثقافية لدى الفرد.

فإذا اعتبرنا أن الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون العادات، والقدرات التي يكتسبها الإنسان عبر مراحل حياته .

وإذا اعتبرنا أن الهوية الثقافية هي: " ذلك المركب المتجانس من الذكريات، التصورات ، القيم ، الرموز ، التعبيرات ، الإبداعات ، والتطلعات التي تحتفظ بجماعة ما هويتها لتشكل أمة أو ما في معناها بهويتها الحضارية، في إطار ما تعرفه من تطورات داخل ديناميكيتها الداخلية وقابليتها للتواصل والأخذ والعطاء ، وبعبارة أخرى هي التعبير الأصيل عن الخصوصية التاريخية لأمة من الأمم، عن نظرة هذه الأمة إلى الكون والحياة والموت والإنسان ومهامه وقدراته وحدوده وما ينبغي أن يعمل وما ينبغي أن يأمل "[1].

وهناك من يرى أن: " الهوية معناها في الأساس التفرد، والهوية الثقافية هي التفرد الثقافي، بكل ما يتضمنه معنى الثقافة من عادات وأنماط سلوك وقيم ونظرة إلى الكون والحياة "[13].

فإن تشكل الهوية الثقافية مرتبط بأزمة المراهقة باعتبارها محطة تحسم مدى نجاح الفرد في تعلم كل هذه العناصر ، وذلك من خلال حل الأزمات السابقة (الطفولة) ، والخروج منها بسلام ونجاح أو ما يسمى بـ " **تحقيق الهوية** "، يؤثر كذلك على سيرورة المراحل اللاحقة .

فتحقيق أزمة الهوية عند المراهق، هو حلقة الوصل بين ما سبق من مراحل النمو، وما يليها من ذلك، وحلقة الفصل في تشكل الهوية الثقافية لدى الفرد.

الهوامش

1 . عباس الجراري ،1988 ، مكونات الهوية الثقافية المغربية في : الهوية الثقافية للمغرب كتاب العلم ، السلسلة الجديدة ، ص22 .

2 . محمد السيد عبد الرحمان (1998 . ب) سمات الشخصية وعلاقتها بأساليب مواجهة أزمة الهوية لدى طلاب المرحلة الثانوية والجامعية، دراسات في الصحة النفسية، الجزء الثاني، دار قباء، القاهرة ص 389 . 470.

3 . أبو جادو صالح محمد ، 1998 ، سيكولوجية التنشئة الاجتماعية ، ط 1/دار المسيرة ، عمان ، ص 87.20

4 . فريال حمود ، 2011 ، مستويات تشكل الهوية الاجتماعية وعلاقتها بالمجالات الأساسية المكونة لها لدى عينة من طلبة الصف الأول الثانوي من الجنسين ، مجلة جامعة دمشق . المجلد 27 . سوريا ، ص 564.

5. زايد أحمد، 2006، سيكولوجية العلاقات بين الجماعات، مجلة عالم المعرفة، العدد 326، الكويت، ص 34.

6. عبد الرحمان محمد السيد: 2001، نظريات النمو، علم النفس النمو المتقدم، ط 1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ص 159.

7. بشير معمرية ، إبراهيم ماحي ،2004 ، أبعاد السلوك العدواني وعلاقته بأزمة الهوية (لدى الشباب الجامعي) ، مجلة شبكة العلوم النفسية العربية : العدد 4 . أكتوبر ، ديسمبر ، ص 18 .

8. بشير معمرية ، إبراهيم ماحي ، نفس المرجع السابق ، ص19 .

10. فريال حمود ، مرجع سبق ذكره : ص 565 .

11. أبو غزال معاوية محمود، 2006، نظريات التطور الإنساني وتطبيقاتها التربوية، ط 1، دار المسيرة، عمان، ص 94.